

عوامل التربية

للاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس

مدار العلوم وكالة أصول الدين

من المعلوم لكل إنسان أن النبات يتولد منه نبات مثله ، يحيا حياة مثل حياته ، ويسلك في النمو طريقاً مثل طريقه ، ويتأثر بما يتأثر به من العوامل ثم يدركه الضعف مثله ثم ينفى بعد انقضاء أجله لأسباب تشبه تلك الأسباب التي تقضي على أصله وتؤدي إلى فناءه .

ونرى مثل ذلك يحصل للحيوان ، فكل حيوان ينشأ عنه آخر مماثل لأصله في الصفات الجثمانية ، مشابه له في كثير من الصفات الخلقية ، ولا يشذ عن هذه القاعدة الانسان . فأننا نلاحظ أن ابن الطويل ينشأ طويلاً ، وأن ابن الأبله ينشأ في الغالب أبله ، بل إننا نلاحظ أن لكل أمة من الأمم صفات تميزها عن غيرها ، ولكل جنس من الأجناس البشرية مميزات خاصة به ، فأولاد الصينيين يشبهون آبائهم في لون الشعر والبشرة وسحنة الوجه وشكل العين والأنف وكذلك ينشأ أبناء الهنود نشأة آبائهم ويشبهونهم في الأوصاف الخلقية وفي كثير من الميول الخلقية وكذلك يقال في أولاد العرب والمصريين والانجليز والفرنسيين .

وللجنس الآري على العموم مميزات جثمانية وأخرى نفسية ، وللجنس المسمى بالسامى خواص يعرف بها يرجع بعضها إلى ملامح وجوههم وألوان بشرتهم وشعورهم ، والبعض الآخر يرجع إلى نزعاتهم النفسية ومذاهبهم الاجتماعية ، وهذه الصفات التي تميز أفراد أمة من أفراد أمة أخرى ويعرف بها الجنس الذي ينتمي إليه الفرد ، وهذا دليل واضح على أن هذه الصفات تنتقل من الآباء للأبناء .

وإن ناموس النشوء والرقى الظاهر الأثر في جميع الأجناس والأصناف من الكائنات الحية يدعونا إلى الاعتقاد بأن بعض الصفات الرئيسية التي ترجع إلى وظائف الأعضاء والتي يكتسبها أفراد نوع من الأصناف بالجهاد في الحياة بحكم قانوني « تنازع البقاء » و « بقاء الأفضل » تنتقل من الأصول إلى الفروع ، إذ لولا ذلك لما حصل الترقى ، ولكان من الضروري أن يبدأ الفرد حياته بسيطاً ساذجاً محدوداً في أعضائه وفي وظائفها ، ولظل الانسان مثل غيره من الحيوانات محدود القوى قليل المواهب العقلية ، لا يمتاز عن أسلافه قليلاً ولا كثيراً .

فما لا نزاع فيه إذن أن الفرع إذا ترك وشأنه، فإنه ينشأ نشأة أصله لا يمنعه من ذلك إلا ظروف خاصة ستبين لك فيما بعد . وانتقال صفات خاصة جثمانية كانت أو عقلية أو خلقية من الأصل إلى الفرع خاضع لقوانين تسمى قوانين « الوراثة » وهي العامل الأول من عوامل تكوين الانسان .

ومن الممكن تعريف الوراثة بأنها ميل طبيعي في الفرع لمحاكاة أصله في تكوينه الجثامى وفي وظائف أعضائه .

وهذه المحاكاة على نوعين : (أولا) محاكاة الفرع لأصله المباشر (ثانياً) محاكاة الفرع لأصل من أصوله السابقة، ويدخل في المحاكاة سلوك الفرع مسلك أصله في النشأة والنمو وأسباب الضعف والانقراض ، والغرض الاساسى من هذه المحاكاة هو الاحتفاظ بالنوع وبقاؤه بقاء صالحاً ، إذ أن بقاء الفرع لا يتحقق إلا ببقاء أفراد من جهة وبمحاكاة الفروع لأصولها من جهة أخرى ، فلم تبق الأفراد لا تقرض النوع ، ولو لم تشابه الفروع أصولها لنشأ نوع آخر .

ومن حيث إن أفراد كل نوع ستجيا حياة أصولها بوجه عام، وستكون مضطرة لمقاومة الظروف التى خضعت لها أصولها من قبلها كان من الضروري للفروع أن يكون لديها من الصفات ما تستعين به على مقاومة تلك الظروف ، أى لا بد لها من أن تكون مزودة بالصفات والحلال التى اتصفت بها أصولها .

هذا اذا فرضنا أن الظروف والأوساط والبيئات اللاحقة هى هى الظروف والبيئات السابقة نفسها وعلى الأقل محاكاة لها، أما اذا حدثت طوارئ جديدة أو حصل تغير خطير في البيئات والأوساط عموماً أو أريد تغييرها قصداً للنشأة الأفراد تنشئة جديدة والسلوك بهم مسلماً آخر لغرض ما فإنه يصير من الضروري في مثل هذه الأحوال أن يحصل في صفات الأفراد انقلاب تابع للانقلاب الذى يحدث في البيئات التى يعيشون فيها .

وهذا الانقلاب خاضع لقوانين خاصة هى قوانين البيئة التى هى العامل الثانى من عوامل تكوين الانسان . والانقلاب الخاضع لقوانين البيئة يحصل بطريقتين : اولها طريق الاستعداد الفطرى وثانيها طريق الاكتساب الارادى ، وتقصد بالاستعداد الفطرى استعداد الكائن الحى للتكيف من تلقاء نفسه تكيفاً يجعله صالحاً للقامة في بيئته الخاصة قادراً على مقاومة عوارضها وطوائرها، وهذا النوع يشاهد في الكائنات العضوية الدنيا والعليا معاً ، غير أن حظ الحيوانات العليا من هذا الاستعداد وافر، وحظ الانسان منها أوفر وأكمل .

وربما كان من مميزات الانسان أنه أقدر الحيوانات على إعداد نفسه لبيئته بسرعة، فأننا نرى

أن الانتقال من بيئة الى أخرى قد يؤدي الى تغير بسيط في لون البشرة ، والى انقلاب تدريجي في الصفات الأخرى الجثمانية وفي الاخلاق والعادات والعقائد، وقد يجسر الانسان على الاحتراف بحرفة تناسب البيئة الجديدة .

كما أننا نلاحظ أن تغير البيئات الاجتماعية كالتصاهر والانتقال من مجتمع الى آخر أرقى وأقل منه منزلة قد يحدث اختلافا بيما في الصفات التي أخذها الفرد عن أسلافه ، وإن كان هذا التغير يختلف سرعة وبطء باختلاف الأفراد في المرونة والجمود لدرجة أن أثره لا يظهر إلا بعد حين . وإن التاريخ كقيل باعطائنا أمثلة كثيرة تبين صحة هذه الحقيقة، انظر مثلا الى اختلاط العرب بالعجم تجد انه قد أدى الى انقلابات سياسية واجتماعية وأدبية خطيرة في الحياة العربية وأحدث تطورات كبيرة في المجتمع الفارسي لاسيما من حيث الدين واللغة والسياسة - وهالك مثلا آخر: التقاء الشرق بالغرب وجها لوجه مرتين: مرة في معاهد العلم في الاندلس، وأخرى في ساحات القتال أثناء الحروب الصليبية ، ذلك الالتقاء الذي نشأ عنه انقلاب عظيم في أوربة ربما يكون من أظهر نتائجه الأحياء العلمى والاصلاح الدينى اللذان حدثا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ولا أذهب بك بعيدا ، فأتنازى في عصرنا الحاضر هذه الحقيقة تعمل عملها بوضوح وجلاء وذلك من جهتين ، فكثير من أبناء وطننا يترحون الى أوربة طلبا للعلم او الراحة ، ثم يرجعون مزودين بالعلوم والعادات والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التي ترى لها من الآثار ما لا يمكن إنكاره . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى تيار الحضارة الأوربية يندفع اليها بحمله هؤلاء الأجانب الذين يتشالون علينا من كل جانب ، ويحلبون لنا من الاخلاق والعادات والتقاليد الحسنة والقييمة والنافع والضار ، ويعزز ذلك المجالات والصحف التي يحملها اليها البريد من الممالك المختلفة زاخرة بالعلوم وانواع الفنون والآداب ، فنجد أنفسنا أمام ذلك التيار الجارف مندفعين بعامل التقليد نحو التشبه هؤلاء الأجانب والتخلق بأخلاقهم والتمسك بالكثير من عقائدهم بعقل وبدون عقل حتى أصبحنا في حاجة الى ملاحظة قوية لتمييز الاجنبى من المصرى .

ولسنا الآن بصدد البرهنة على أن هذا النوع من نوعى الانتقال والتطور فطرى وضرورى في آن واحد ، فقد ترغم الظروف بعض الامم على احداث انقلابات علمية واجتماعية يكون لها آثار حسنة في تغيير ثقافتها وتحويل تيارات حياتها بحيث تكون أكثر استعدادا للمقاومة والمنافسة وأقدر على احتلال المركز اللائق بها بين الامم .

أما الانقلاب بطريق الاكتساب الأرادى فيراد به الانقلاب الذى تقرضه الارادة على الفرد إن كانت هناك إرادة يقودها الفكر الصحيح .

وهذا مشاهد في الانسان الذى يهذب نفسه بنفسه ويدرس شؤونه على حسب ما تسمح له ظروفه ويسلك الطريق الموصلة الى غايته وي بذل جهده في أن يصير عضواً عاملاً في المجتمع. وإنما يسعى الانسان هذا السعى ويسلك ذلك المسلك، لأنه يميل بفطرته الى التقدم، ويخرج بطبيعته نحو النهوض ويعزز ذلك الميل الفطري معيشته في مجتمع يرغمه على التنافس كي يحيا حياة طيبة شريفة، غير أن وجود ذلك الميل الفطرى قد لا يكفي لسعى الانسان نحو التقدم، فالطمل الصغير تنقصه الإرادة القوية وبعض البالغين تعوزهم التجارب ولا يعرفون السبل التي يجب سلوكها معرفة تامة فن العبث في مثل هذه الأحوال أن يترك الانسان فرصة تتعقبه الحوادث، ولقمة يلتمسها الدهر، ولعبة في أيدى البيئة تتصرف فيه كيف تشاء، بل من الواجب على أفراد المجتمع العالمين المحربين أن يكونوا هداة لأمثال هؤلاء الضالين، وأدلاء لأبناء وطنهم التأملين، وهذه الهداية لا تتحقق إلا بالترية.

ومن ذلك نرى أن الانقلاب الأرادى له نوع ثان، هو الانقلاب الذى تفرضه إرادة المجتمع باتخاذ وسيلة خاصة تسمى الترية.

فالترية إذن هي وسيلة أو أداة، مدبرة يقوم بأدائها الخبراء من أفراد المجتمع، ويكون الغرض منها إعداد النشء للحياة في بيئتهم الخاصة حياة كاملة. وإن هذه الوسيلة لن تفلح ولن تأتي أكلها إلا إذا كان للأرادة الفردية أثر فعال فيها أى إرادة الفرد لابد أن تساعد إرادة المجتمع مساعدة جديده فعلية في سبيل الوصول الى الغرض المقصود.

وهذه الأرادة البشرية بتوعيتها هي العامل الثالث من عوامل تكوين الانسان.

فمن ذلك نرى أن الحياة في تقلب مستمر وتقدم مطرد، وإنك لو بحثت عن عوامل هذا التقلب وأسباب ذلك التقدم لوجدتها ترجع إلى ثلاثة أمور هي: الوراثة والبيئة والأرادة.

وهذه العوامل الثلاثة في نزاع دائم وصراع مستمر، فالوراثة قد تتغلب على الآخرين كما أن البيئة قد تخضع الوراثة والأرادة لسلطانها، واسكن الأرادة في الانسان هي أقوى الثلاثة وأشدها أثراً في حياته، إذ بها تمكنه السيطرة على العاملين الآخرين، فيقتدر على تحسين الوراثة، وإخضاع البيئة وإعداد النشء للانتفاع بما حسن من آثارها ومكافحة ما ساء منهما. والى الأرادة يرجع الفضل الأول في معرفة أسرار الطبيعة وفي اتخاذ هذه المعرفة وسيلة لتسخير عناصرها واستخدامها لمصلحته ولولاها لوقف الانسان حيث بدأ، أو على الأقل قريباً من حيث بدأ حياته على ظهر البسيطة، ولبقى حيواناً ساذجاً لا يمتاز عن غيره من الحيوانات لا قليلاً.

واسنا بمغالين اذا قلنا إن تاريخ الحضارة الإنسانية هو في الحقيقة تاريخ صراع مستمر بين الارادة البشرية من جانب ، وبين الوراثة والبيئة من جانب آخر والآن نتكلم عن كل من هذه العوامل علي وجه التفصيل :-

الوراثة

قدمنا لك ، أن الوراثة هي ميل طبيعي في الفرع ، لمشابهة أصله في تكوينه الجثائي ، وفي وظائف أعضائه ، ويعرفها بعض العلماء تعريفا آخر فيقول إنها مشابهة الفرع لأصله . والفرق الأساسي بين التعريفين هو أن الاول يجعل الوراثة ميلا طبيعيا ، ويعتبر المشابهة نتيجة ناشئة عن ذلك الميل ، أما التعريف الثاني فإنه يقول لنا إن المشابهة نفسها هي الوراثة . وعندى أن التعريف الثاني أدق من حيث الوجهة إذ أنك اذا قالت إن فلانا أخذ عن أبيه الذكاء بالوراثة فأنت تريد أنه أخذه عنه بطريق المشابهة لا بطريق الميل للمشابهة إذ أن الميل لا يؤدي دائما الى الفعل . والوراثة تعمل عملها سواء أوجد ميل أم لا .

على أن هذا التعريف الثاني ينقص تقييد المشابهة بقيدين ضرورين : -
ذلك أنه لا بد من أن نقول إن هذه المشابهة فطرية أو طبيعية ، لأن مشابهة الفرع لأصله لا تأتي عفوا كما أنها ليس لها شواذ ، فكل كائن عضوى يشبه ، اصوله دائما في كل زمان ومكان .

ولا بد كذلك من تقييد المشابهة بكونها مشابهة في أمور خاصة ، إذ أنه ليست كل مشابهة أمرا وراثيا ، ألا ترى أن الطفل يحاكي أباه أو أمه أو أحد أقاربه ، في أقوالهم وأفعالهم ؟ بل إنه قد يحاكي أحد أقرانه أو أحد الاجانب الذين يختلط بهم كثيرا في بعض صفاتهم ؟ فليس من المعقول أن تسمى هذه المحاكاة وراثية في ذاتها ، واسكنها ترجع الى نظرية عامة وقاعدة أخرى هي قاعدة التقليد .

فالمشابهة الوراثةية مشابهة فطرية في أمور خاصة ، وقد أشار التعريف الاول الى هذا التخصيص ، فتقيد المشابهة بكونها في التكوين الجثائي وفي وظائف الاعضاء .
فإذا أضفنا هذين القيدين إلي التعريف الثاني وقلنا إن الوراثة هي مشابهة الفرع لأصله مشابهة فطرية في تكوينه الجثائي وفي وظائف أعضائه كان التعريف حينئذ كاملا .

منزلة الوراثة

١ - في علم الحياة . والوراثة بالمعنى السابق أمر معترف به في علم البيولوجيا أو علم الحياة بل إن هذا العلم يجعل للوراثة المنزلة الاولى في تكوين الكائن الحي ، ولا يكاد يعترف بما

لبيئة والارادة من الآثار بدعوى أن آثارهما لا قيمة لها بالنسبة لآثار تلك ، إذ أن ماتحدثه هاتان من تغيير أو تبديل في صفات النشء يكون قاصرا على جيل واحد ، إذ أن معظم الصفات المكتسبة بالتربية إن لم تكن كلها لا ينتقل الى النسل بالوراثة كما سيأتى: —

٢ — في العرف والادب فالعلم الحديث يجعل للوراثة المنزلة الاولى من بين عوامل التربية ، وهذا مطابق لعرف الأمم ، فأنت تجد كتب الأدب في كل أمة محشوة بالحكايات والامثال التي يؤخذ منها أن الطبع يغلب التطبع كما يقول ابن خلدون ، وإليك حكاية ذكرها صاحب العقد الفريد :

قالوا إن ملكا من ملوك الفرس كان له وزير حازم مجرب ، فكان يصدر عن رأيه ويعترف للنين في مشورته . ثم إنه هلك ذلك الملك وقام بعده ولده معجبا بنفسه مستبدأ برأيه ومشورته فقيل له : إن أباك كان لا يقطع أمراً دونك (أى دون الوزير) فقال كان يغلط فيه ، وسأمتجنه بنفسى ، فأرسل اليه فقال أيها أغلب على الرجل الادب أو الطبيعة ؟ فقال : الوزير : الطبيعة أغلب لأنها أصل والادب فرع وكل فرع يرجع الى أصله ، فدعا الملك بسفرته فلما وضعت أقبلت سنانير بأيديها الشمع فوقفت حول السفرة . فقال للوزير : اعتبر خطأك وضعف مذهبك متى كان أبو هذه السنانير شاعرا ؟ فسكت عنه الوزير وقال : أمهلنى فى الجواب الى الليلة المقبلة . فقال ذلك لك . نخرج الوزير فدعا بغلام له ، فقال التمس لى فأرأ واربطه فى خيط وجئنى به ، فأتاه به الغلام . فعلقه فى سبنيته وطرحه فى كمه ثم راح من الغد الى الملك ، فلما حضرت سفرته أقبلت السنانير بالشمع حتى حفت بها نخل الوزير الفأر من سبنيته ، ثم ألقاه اليها فاستبقت السنانير اليه ورمت بالشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ، نارا فقال الوزير : كيف رأيت غلبة الطبع على الادب ورجوع الفرع الى أصله ؟ قال صدقت ، ورجع الى ما كان عليه أبوه .

وحكى السعدى الشيرازى الكاتب الفارسي الشهير ، والشاعر الاخلاقى الخطير ، فى كتابه المسمى كلستان (أى روضة الورد) إن طائفة من لصوص العرب كانوا يقيمون على قمة جبل وكانوا يسدون الطرق فى وجوه القوافل ، فأخذ الرعية الرعب من مكائدهم وتغلبوا على جيش سلطان تلك الناحية ، لانهم كانوا فى مكان منيع وحصن حصين من المستحيل على الجند الوصول اليه . فتشاور أولو الامر فى كيفية الخلاص من هؤلاء ، لأنه إذا استمر حالهم على هذا المنوال فإنه يصبح من المستحيل مقاومتهم ، إذ أن معظم النار من مستصغر الشرر ومن السهل على شخص واحد استئصال الشجرة الحديثة العهد بالعرس ولكن اذا تركت دهورا طويلا ، فإنه لا يمكنه ذلك ، والسيل عند منبعه قد لا يبل الرءاء ، ولكن اذا ترك فقد تلاءم الدلاء .

وأخيراً قرر أن يذهب إلى رجل يتجسس أحوالهم ويبحث عن فرصة ذهابهم
لشن الغارة على غيرهم من الناس فيذبح الخبز ويعلم أمراء الجنداء فيتخيرون فريقاً من أشدهم
خبرة وعاماً بخدع الحرب ومكان الجبال ، فيرسلونهم ليختفوا في شعب الجبل ، فذهب الرجل والجنود
واختفوا حتى إذا جن الليل ورجع الاصوص من غارتهم وألقوا غنائمهم وأمتعتهم ونزعوا أسلحتهم
واضطجعوا واستسلموا لسلطان الذرم - ذهب الخبز إلى الجنود فوثبوا عليهم من مكائهم وثبوا على رجل
واحد ، وشدوا وثاقهم وربطوا أيديهم على ظهورهم ، ثم أحضروهم صباحاً بين يدي السلطان
فأمر بهم أن يقتلوا جميعاً .

واتفق أن كان من بينهم غلام حديث عهد بالشباب لم يطر شاربه ، ولم ينبت عزاره ، فتقدم
أحد الوزراء وقبل قوائم التخت بين يدي السلطان ، وألقى بوجهه على الأرض شافعاً لهذا الغلام الصغير
وقال : أيها السلطان الكبير والملك الخطير إن هذا الشاب لم يأكل بعد من روضة الحياة ولم يتمتع
بعنفوان الشباب وإني أرجو من كرم السلطان ومحاسن شيمه أن يمن عليه بدمه ، فغضب السلطان
لذلك وكاد يتميز من الغيظ ، وقال أيها الوزير إن نور الاختيار لا يهبط على الأشرار وتربية الاندال
كوضع بذقة على سطح كرة ، فمن الأولى أن تقتلع دابر هؤلاء المفسدين ، وأن تقضي
على ذريتهم الملائعين ، ومن الأحسن أن تقتلع جذورهم ونهدم بنيانهم من أساسه ، فليس من
الحزم أن نحمد اللبيب ونترك الجرة متوقدة . ولا من العقل أن تقتل الحية ثم نبقي على نسلها .
وإن السحب إذا أمطرت ماء الحياة فلن تطعمك من الصفصاف فأكهة شجرة ، فلا تضيع وقتك
مع من انحطت قيمتهم فأنت لن تجني الورد من الشوك (ولن تخرج السكر من أعواد الخصر)
فلما سمع الوزير كلام السلطان استحسنه وأمن عليه طوعاً وكرهاً ، ثم قال : إن ما قاله السلطان
أدام الله ملكه هو عين الصواب ، ولكن هذا الشاب أخذ عن هؤلاء الأشرار صفاتهم بنشأته
بينهم فأصبح واحداً منهم ، وإن خادكم المطيع يأمل أنه بصحبة الصالحين يتلقى دروس التربية
ويأخذ عنهم آدابهم ، ويصبح طبعه مثل طبعهم . لأنه لا يزال طفلاً لم تتمكن في نفسه أخلاق
البغي وصفات العناد التي اتصف بها هؤلاء الأذكاء ، ففي الحديث « ما من مولود إلا ويولد على
فطرة الاسلام ، ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

ألا ترى أن امرأة لوط أصبحت شريرة بمصاحبة الأشرار فحكم الله عليها بالعقم وانقطعت
ذريتها ولم تكن من أمهات الانبياء ؟ وأن كلب أصحاب الكهف بمصاحبة الأشرار
الزمان واقفقاء أثر الصالحين السنين الطوال صار كرجل من الاختيار ؟
فلما انتهى الوزير من هذا الحديث أقبل طائفة من تدماء السلطان وأضافوا أحوائهم إلى

صوته في طاب الشفاعة من السلطان فيمن بدم الشاب للوزير ، وقال لني واهب لك حياته مع
أنى لأرى في ذلك مصلحة ثم أنشأ قائلاً :

هل تدرى ما قاله الملك زال لرسم أمير جنده ؟ لا ينبغي أن تعد عدوك حقيراً أَوْ ضعيفاً ،
إنا نستصغر الماء وهو ينبع من منبعه ، ولكنه إذا عظم حمل الجمال والأحمال في طريقه .
وبالاختصار حمل الوزير ذلك الغلام الى بيته وتعهده ، وأدر عليه الخير والنعمة ، وعهد
بترتيبه إلى أستاذ أديب كي يعلمه حسن الخطاب ولطف الجواب وسائر الآداب التى تتطلبها
خدمة الملوك ، وما زال به حتى أدهه وأحسن تأديبه وحازت أخلاقه استحسان الجميع ، وقد
حدث ذات مرة أن كان يتكلم الوزير بحضرة السلطان عن حسن أخلاق الغلام ، فيقول إن
تربية العقلاء قد أثرت فيه وأذهبت عنه طبيعته وضلاله القديم فتبسم السلطان وقال :

غذيت بدارنا ونشأت فينا فمن أنبأك أن أبأك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع أدب الأديب

أى أن ابن الذئب يصير ذئباً ولو نشأ بين بنى الانسان .

وبعد مرور عام وآخر على ، ذلك اتصل الولد بطائفة من أو باش ذلك المكان ، واتصلوا
به ، وقويت بينهم المودة واشتدت أو اصر الأخرى ، ففى يوم من الايام وجد القرصة سانحة له
لارتكاب الجرائم ، فقتل الوزير وولديه وحمل من متاعه ما لا يحصى وذهب الى غارة اللصوص
وأقام حيث كان يقيم أبوه ، وأصبح من العصاة المجرمين ، فلما بلغ ذلك السلطان قرع سن
الندم وعض على أنامله غيظاً ثم قال شعراً معناه :

كيف يصنع حسام قيم من حديد بليد
ما ليس برجل لا يصير رجلاً بالتعليم يا حكيم

إن المطر الذى لا يختلف اثنان فى لطافة طبعه ورقة مزاجه

يسقى الشقائق فى الحدائق والحشائش فى الارض المجربة

وإن الارض المالحة لا تخرج السنبلى فلا تضيع بذور العمل الصالح فيها سدى

والعمل الصالح مع الاشرار كالعمل السيئ مع الاخيار

ووضع الندا فى موضع السيف بالقتى مضر كوضع السيف فى موضع الندا

هذه هى الحكاية ، ومهما يكن فيها من مبالغة أو انتحال ، فإنها ولا بد تعطينا صورة واضحة

من عقلية الكاتب - الذى يعده مواطنوه والمستشرقون من أوربة ، من أكابر المفكرين ومن

أساطين الاخلاقيين فى عصره ، ويبرهن على ذلك ما كتبه فى كتابيه (الكاستان) السابق الذكر

(والبوستان) وما ذكره فى حكاياته .

وليس التاريخ الحديث وآداب العصر بأقل حظاً من الأمثلة والحوادث التي تبرهن على تغلب الطبع على التطبع أو الوراثة على التربية، فقد روى أن أحد علماء أمريكا الذين ينتمون إلى جمعيات الرفق بالإنسان أنه واسى شخصاً من قبائل الزوج يسمى فيلينو بدريتو Felipino Pedrito ورباه تربية حسنة وعلمه لغات عديدة، ولكن ثقلت عليه وطأة المدينة فلم يلبث أن هجر العالم المتحضر واختفى عن الأعين، ثم عثر عليه عالم الماني وهو مقيم بين قومه وعشيرته يحيا حياتهم ويعيش معيشتهم الوحشية الساذجة.

ويشبه ذلك ماروي عن طائفة ميمى Meme ومن معد من الأقزام الذين أحضرهم يرى Peary من أقاصى الجهات الشمالية إلى نيويورك فماتوا جميعاً بالسل ولم يبق منهم إلا ميمى هذا الذى لم يأت به بالحضارة الأمريكية فهجرت نيويورك ورحل إلى موطنه الأصلي ناعماً على المدينة آسفاً على والده الذى مات مع من ماتوا وحنطت جثته وأودعت متحف التاريخ الطبيعى بنيويورك. وما أصدق قول كارليل « ما التمدن إلا غشاء رقيق تظل تحته الطبيعة البشرية تحترق إلى الأبد بنار جهنمية ».

وهذا يشبه قول المستر كلد في كتابه تم نت توت Tom Tit Tot « إنك إذا أزلت الغشاء الظاهري للإنسان المتمدين لوجدت في الغشاء الباطنى الإنسان المتوحش » . وما أحسن قول اللورد بيرون في هذا الصدد :

« نعم إن ابني هو ابني وهو منسوب إلى، ولكنى أرى أجداده الماضين غير البشرية ينزعوننى في هذا الملك العزيز لى، فأنهم يشوهون طهارة نفسه، ويكفرون صفاء روحه بما رسب في أعماقها من نزعات شريرة مجهولة انتقلت اليه بالوراثة »

ولا نذهب بك بعيداً فإن في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ما للوراثة من منزلة، فقد قال الله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »

وقال تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام « وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي » وقال أيضاً في شأن من ضعفت نفوسهم لدرجة أنه لا ينفع فيهم الوعظ والارشاد « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ».

وستتاح لي فرصة فيما بعد للكلام على حديثين شريفيين متعلقين بالوراثة هما قوله (ص) (تحيروا لنطفكم فإن العرق دساس) وقوله (إياكم وخضراء الدمن . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسنة في الميث السوء)

وستتناول البحث في تحليل الوراثة وفي قوانينها وفي الفرق بين الصفات المكتسبة والصفات الوراثية في عدد آخر إن شاء الله تعالى

هاجر عبد القادر